مجلة العلوم الاجتماعية
المجلد 08 / العـدد: 02 مكرر (الجزء الأول) / جويلية 2019 / ص ص 281 - 292
عدد خاص بالملتقى الوطني الأول: مشروع أسلمة المعرفة، مبرراته وإشكاليات تطبيقه

من نقد النظام المعرفي الغربي إلى أسلمة المعرفة

From criticism of the Western knowledge system to the Islamization of knowledge

د. محمد تونسي [1]

[1] جامعة الأغواط (الجزائر) ، tounsimod@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/06/13 تاريخ القبول: 2019/06/15 تاريخ النشر: 2020/02/08

ملخص:

رأى دعاة مشروع أسلمة المعرفة أن النموذج المعرفي الغربي يعيش أزمة معرفية تضع أمام تحديات صعبة ، و سبب هذا يرجع إلى الأسس التي قام عليها و المفاهيم المكونة له، فالسياقات التي نشأ فيها النموذج المعرفي الغربي قادت إلى اتخاذ مواقف إزاء الدين و الإنسان و الطبيعة، إن دعاة أسلمة المعرفة لا يرفضون العلوم الغربية بقدر ما يحذرون من خطورة المنبت التي نشأت فيه، فالنموذج المعرفي الغربي الذي يدعي بعض المنظرين أنه قمة تطور النماذج المعرفية مبني على رؤية أحادية تبالغ في التركيز على الجانب المادي و تهمل الجانب القيمي و الروحي، كل هذا دفع أصحاب مشروع أسلمة المعرفة إلى القول بضرورة تحرير المعرفة من الرؤية الغربية و إعادة تأسيسها بشكل متوازن.

كلمات مفتاحية: أسلمة، المعرفة، النموذج، المعرفي، الغربي.

Abstract :

The advocates of the project of Islamization of knowledge saw that the Western cognitive model is living a knowledge crisis that poses it with difficult challenges. This is due to the foundations and the concepts that constitute it, The contexts in which the Western cognitive model originated have led to attitudes towards religion, man, and nature, The advocates of the Islamization of knowledge do not reject Western science as much as they warn of the danger of the environment in which it originated, The Western cognitive model, which some theorists claim to be the culmination of the development of cognitive models, is based on a monolithic vision that over-emphasizes the material aspect and neglects the moral and spiritual aspect, all this prompted the owners of the Islamization project to say that it is necessary to liberate knowledge from the Western vision and to re-establish it in a balanced manner.

Keywords: Islamization, knowledge, model, western.

المؤلف المرسل: محمد تونسي، **الإيميل:** tounsimod@gmail.com

مقدمة:

لقد رأى دعاة مشروع أسلمة أن النموذج المعرفي الغربي يعيش أزمة معرفية تضعﻫ أمام تحديات صعبة ،و سبب هذا يرجع إلى الأسس التي قام عليها و المفاهيم المكونة لﻫ ،و رؤيتﻫ المعرفية للطبيعة و الإنسان و الله ،فالسياقات التي نشأ فيها النموذج المعرفي الغربي قادتﻫ إلى اتخاذ مواقف إزاء الدين و الإنسان و الطبيعة ،و ترتب عن هذا اختلالات في علاقة العلم بالدين و القيم ، و علاقة الإنسان بالطبيعة و بالدين ،لقد انتقد نقيب العطاس النموذج المعرفي الغربي و وصفﻫ بأنﻫ أكثر خطورة و هدما لحياة الإنسان ،لقد رأى أن " التحدي الأكبر الذي اخترق وجودنا في هذا العصر إنما هو تحدي المعرفة، و لكن ليست المعرفة في مقابل الجهل و إنما المعرفة كما تم فهمها و تصورها و نشرها في العالم بواسطة الحضارة الغربية.إنها المعرفة التي أصبحت هي نفسها مسألة مشكلة إذ أنها قد فقدت غايتها الحقيقية بسبب تصورها غير القويم "1،لقد رأى العطاس بوجوب تحرير المعرفة من الرؤية الغربية ،فهي نبتت في ﻫاضنة ذات مبادئ و قيم مختلفة عن مبادئنا و قيمنا كمسلمين ،كما أن الاختلالات التي يقود إليها النظام المعرفي الغربي تجرد المعرفة من أي إطار قيمي و توﻫيدي و هذا لا يتماشى و الغايات الأسمى للمعارف و العلوم . كذلك رأى إسماعيل الفاروقي أن مكمن الداء هو فيما يأتينا من الغرب من معارف ﻫاملة لقيم مختلفة عن قيمنا ،و التي تغلغلت في نظمنا التعليمية ،يقول الفاروقي :"إن النظام التعليمي هو المعمل الذي فيﻫ يعجن ويشكَّل الشباب المسلم ، وهناك يصاغ وعيهم في قالب هو صورة ممسوخة للغرب ، وتفصم الرابطة بين المسلم وماضيﻫ وتوضع في وضع ﻫرج رغبتﻫ الطبيعية في التطلع لمعرفة تراث أسلافﻫ ...ونتيجة للشكوك التي بثها هذا النظام في أعماق وعيﻫ تصاب بالتبلد رغبتﻫ في أن يقف مع أسلافﻫ على أرض مشتركة لينطلق منها نحو بعث لإسلام جديد وملائم للعصر"2.إن الدعوة إلى أسلمة المعرفة برزت نتيجة قناعة بوجود اختلالات في النموذج المعرفي الغربي ﻫيث تأسست المعرفة على أطر غير متوازنة و ابتعدت عن مقاصدها الحقيقية ، فما هي أهم الانتقادات التي وجهت إلى النموذج المعرفي الغربي؟

1. ما هو النموذج المعرفي:

يمكن القول أن النموذج المعرفي يشتمل على منظومة تتعلق بفلسفة المعرفة و رؤية ﻫول تكونها و تصنيفاتها و مصادرها و تاريخها و أدواتها و مناهجها ، اهتم فيلسوف العلم الأمريكي توماس كون بالنموذج المعرفي ،و استعمل مفهوم البرادايم paradigme للإشارة إلى النموذج الذي يساهم في فهم المشكلات المعرفية و ﻫلها في عصر ما ،و البردايم هو مجموع الأدوات و التقنيات و المناهج و المفاهيم و القوانين والنظريات المتا ﻫة في ﻫقبة ما و قناعات و قيم و معتقدات المجتمع العلمي و الشروط السيكولوجية التي تساهم في تكون المعرفة في فترة معينة، يقول كون في تعريفﻫ للبرادايم :

" مجموعة متآلفة منسجمة من المعتقدات و القيم و النظريات و القوانين و الأدوات يشترك فيها أعضاء مجتمع علمي معين ،و تمثل تقليدا بحثيا كبيرا أو طريقة في التفكير و الممارسة و مرشدا و دليلا يقود البا ثين في قل معرفي معين "3.

كذلك يعرف عبد الوهاب المسيري النموذج بأن "بنية فكرية تصورية يجردها العقل الإنساني من كم هائل من العلاقات و التفاصيل فيختار بعضها ثم يرتبها ترتيبا خاصا أو ينسقها تنسيقا خاصا ،بحيث تصبح مترابطة بعضها ببعض ترابطا يتميز بالاعتماد المتبادل و تشكل و دة متماسكة يقال عنها أ يانا عضوية" 4،و لكل نموذج بعده المعرفي و مكونات الداخلية من فروض و مسلمات تشكل جذوره و أساس العميق ، و أبعاده الغائية.

لكل مجتمع نظاما معرفيا ينعكس من خلال بنية المجتمع الاعتقادية و الثقافية و الفكرية و النفسية، و هذا النظام المعرفي يكون موجها للتفكير من خلال تفاعل المعلومات و المفاهيم و الأفكار بطريقة معينة و يفهم من خلال الإنسان الظواهر المحيطة ب و يكون ل نظرة معينة للقضايا الكلية ،فالنموذج المعرفي "يحمل رؤى الإنسان الفيزيقية و الميتافيزيقية و نظام القيمي و علاقات المعيارية و مصادر تشكيل معرفت و إطاره المرجعي و هذا يجعل النموذج أداة تحليلية يمكن من خلالها إدراك جوهر الظاهرة و فروعها و يساهم في عملية التفسير بصورة أساسية "5

2. علاقة الدين و العلم في النماذج المعرفية:

يفهم من مصطلح أسلمة المعرفة محاولة إعادة تأسيس نموذج معرفي يأخذ بعين الاعتبار الجانب الديني و القيمي في مقابل النموذج المعرفي الغربي الذي أهمل هذه الجوانب ،إن الفصل الذي تكرس بين العلم و الدين في الحضارة الغربية جاء نتيجة سياقات معينة ، و ما اقترف الأوربيون هو أن ردت فعلهم إزاء ممارسات الكنيسة في العصور الوسطى عمموها لتصبح ردة فعل إزاء الدين ككل أينما كان ،و ولوا العداء بين لاهوتيي العصور الوسطى و العلم إلى عداء بين الدين و العلم ،و كأن الدين في أي ضارة لا يجب أن يوجد مع العلم ،إن مشروع أسلمة المعرفة هو أعادة رسم العلاقة بين الدين و العلم لأن ببساطة العداء المزعوم لم يكن موجودا أيام كان العلم الإسلامي في أوج تطوره و لا يمكن أن يوجد إذا أسسنا المعرفة على تصور تو يدي للوجود ،و لذا فهذا الطلاق الذي يكرس الغرب بين العلم و الدين يجب تجاوزه ،لأن غير مبرر و جاء نتيجة لممارسات رجال اللاهوت و ليس الدين نفس.

في مر لة العصور الوسطى عاش العقل الأوربي التضييق على الاجتهاد و كانت مسر ا لصراع اللاهوت و العلم ،و لا تزال مفرزاتها تلقي بظلالها على النموذج المعرفي الحديث و بالضبط في

جزئية علاقة العلم بالدين ،في العصور الوسطى كانت محاكم التفتيش تقوم باضطهاد كل من يخالف أراء الكنيسة ،ووصف أفكار هؤلاء المخالفين بالهرطقة ، ارتبط الاجتهاد المعرفي في العصور الوسطى بتعاليم الدين و الكنيسة ،فقد كانت الجامعات و التعليم تحت إشراف الكنيسة □يث كانت تقدم دروس ممزوجة بالتعاليم المسيحية □يث كان يدرسون اللاهوت.

في القرن الثاني عشر باتت بعض الجامعات تقدم تعليما يختلف عما تقدم□ الجامعات التابعة للكنيسة ، بحيث كانت تشجع على النظر العقلي دون الاعتماد على تعاليم الدين في فهمهم للمشكلات المعرفية،و قد أثار هذا قلقا لدى رجال الدين ، مما دفع الكنيسة إلى وضع قواعد للتعليم من شأنها أن توقف التمرد في المناهج الذي سلكت□ بعض الجامعات ،و تشترط هذه القواعد أن يتوافق أي اجتهاد مع ما جاء في الكتاب المقدس و أقوال رجال الكنيسة6 ، و هذه التعاليم تكرس فكرة أن المعتقدات الموجودة في الكتاب المقدس كفيلة أن تجيب على أي شيء، و هي أصدق من كل ما يمكن أن يصل إلي□ العقل،لقد كان ينظر إلى الدنيا على أنها مر□لة زائلة و كانت التعاليم الكنسية تدعوا إلى الزهد والعزوف عن متاع الدنيا، و قد أدى هذا تهميش جزء هام من الإنسان والمتمثل في □ب البحث والاستطلاع ،كما أن ا□تقار كل ما ل□ صلة بالمادة لم يعط الفرصة لتشجيع انتشار التجريب في □قل العلوم المادية ، مما أدى هذا عزل المعارف و العلوم عن تلبية □اجيات المجتمع .

تبنت الكنيسة النظرية الجيومركزية لبطليموس نظرا لأنها □سهم تتوافق مع ما جاء في الكتاب المقدس ،فالنبي يوشع دعا أن تتوقف الشمس عن الحركة و ليس الأرض ،و هذا دليل على ثبات الأرض و مركزيتها ،كما أن فكرة مركزية كانت تخدم عدة تبريرات مثل مركزية الإنسان كأفضل المخلوقات ،و مركزية الكنيسة بالنسبة لشؤون الأرض و الحياة ،لقد كانت فكرة المركزية أ□د دعائم النموذج المعرفي الغربي في العصور الوسطى ،فالكنيسة كانت تمثل سلطة مركزية للعلم و الحياة و □تى أنها الوسيط المركزي الأرضي بالنسبة للحياة الآخرة ،فالكل يعمل من أجل الكنيسة و من خلالها يعمل لخدمة الإل□ ،و الطبيعة التي نحن ضمنها هي نتاج الخطيئة الأولى ،و ما على الإنسان إلا أن يعود إلى رب□ بإتباع تعاليم الكنيسة .

بعض مؤرخي النهضة الأوربيين يرون أن النهضة العلمية الأوربية امتداد لانجازات المر□لة اليونانية □يث بدأت النهضة العلمية من إعادة قراءة التراث اليوناني ،و قد تجاهل هؤلاء تأثير النهضة العلمية عند المسلمين على أوربا و كيف وجهت الوعي الأوربي □يث تم نقل التراث الإسلامي العربي العقلاني العلمي من العربية إلى اللاتينية وأصبح أ□د مكونات النهضة الأوروبية الحديثة،بفضل ترجمة علوم و معارف الحضارة الإسلامية استفاقة أوروبا من الانتكاسة التي شهدها الاجتهاد في العصور الوسطى التي تسمى عصور الظلام ،كذلك توجد نظرة غربية غير

موضوعية للنهضة العلمية عند المسلمين ﷺيث يصفون الحضارة الإسلامية بأنها دينية و أن الدين يتدخل في جميع مناحي الحياة مثلما كانت تقوم الكنيسة عندهم ،و ﷺاولوا إسقاط ما كان عندهم من تضييق الخناق على الاجتهاد المعرفي على الحضارة الإسلامية ،و تجاهلوا أن العامل الديني عند المسلمين لعب دورا فاعلا في النهضة العلمية ، فالقرآن الكريم يحوي الكثير من الآيات التي تحث على العلم و إعمال العقل و النظر في الكون ، و لم يفرض القرآن و لا السنة النبوية طريقة نظر معينة أو فهم معين لظاهرة طبيعية و لا لتقديس ظاهرة أو فكرة ﷺول الطبيعة ،لهذا لم يكن للمسلمين مشكلة مثلا في قولهم أن الشمس مركز الكون و ليس الأرض ،لأنﷺ و ببساطة لم تكن هناك فكرة مقدسة ﷺول الطبيعة و لم يكن هناك ﷺرس يفرض فهما معينا للطبيعة ،لقد أشارت المستشرقة الالمانية زيغريد هونكﷺ إلى الاختلاف الجذري بين الاجتهاد العلمي عند المسلمين و ما كانت تقوم بﷺ الكنيسة في العصور الوسطى ، ﷺيث تقول: "التسامح الفائق و السخي تجاه الآخر ﷺتى في الأمور الدينية ،و التسامح في تلقي العلم و طلبﷺ سواء من المؤمنين أو من غيرهم ﷺتى و لو جاء من الصين ،القدرة الفائقة لنبي المسلمين في سما ﷺتﷺ نحو اكتساب المعارف الدنيوية النافعة جنبا إلى جنب مع المعارف التي ينزل بها الوحي الإلهي ،بل إصراره وتشديده على طلبها...و هو بذلك لا يضع المؤمنين في سجن عقائدي لا يسمح بدخول نسائم الهواء إليﷺ ،بل يفتح كل مكان لتلقي العلم و العمل على تنقيتﷺ من الشوائب ... الأمر الذي لم تستطع أن تفعلﷺ الكنيسة المسيحية "7.

الاشتغال بالبحث العلمي في الحضارة الإسلامية لم يكن ترفا بعيد عن الحاجة ، بل كان لخدمة الإنسان و تيسير ﷺياتﷺ ، لقد أضاف المسلمون قيمة مهمة يجب أن يرويها تاريخ العلم و هي أنهم استفادوا من اكتشافات العلم لأجل تسخير الطبيعة لفائدة الإنسان، و هذا أمر لم يشهده اليونان و لا الأوربيون في العصور الوسطى ، يكفي أن نذكر أن البارود الذي كان يستعملﷺ السحرة في الصين استعملﷺ المسلمون كقوة قاذفة في السلاح العسكري ، و الكحول الذي كان للشرب استعملﷺ المسلمون لتعقيم الجروح ،يقول ﷺسين نصر معلقا على تطبيقات العلوم عند المسلمين :" كان كثير من هذه البحوث يختص بتطبيقات عملية فيصف طوا ﷺين الهواء و نواعير الماء و العناصر المعمارية و مشاكل الري و التقطير و غيره من العمليات الكيميائية و العتاد الحربي ...الخ، ... و بعض البحوث الأخرى و صفت آلات معقدة شبيهة إلى ﷺد كبير بما استحدثتﷺ التكنولوجيا الحديثة خلال القرنين الماضيين"،8لقد استفاد الأوربيون من العلم الإسلامي و انتقلت إلى أوربا مناهج و نظريات مفاهيم و قيم علمية و نظرة للطبيعة لم تكن موجودة في نموذجهم المعرفي .

نتيجة لنظرة الإنسان الغربي للممارسات الكنيسة في العصور الوسطى و نتيجة للرواسب السلبية التي طبعتها تلك الفترة المظلمة نتج نوع من الفصام بين العلم الدين في النموذج المعرفي الغربي الحديث ،ونشأ نوع من التفكير يكرس لفكرة "تطهير" العلم من الدين ،و كأن عجلة العلم ستتقدم بمعزل عن أي صلة بالدين ،يقول نقيب العطاس في هذا الشأن:"إن هذه الحضارة تقيم نظرتها للواقع و الحقيقة ليس على أساس من معارف الوحي و الإيمان الديني ،و إنما على أساس تقاليد ثقافية تسندها مقدمات فلسفية صارمة مبنية على تصور للحياة الدنيا محوره الإنسان بوصفه كيانا ماديا و حيوانيا ناطقا.و هي بذلك تعتمد اعتمادا كبيرا على القدرات العقلية للإنسان للكشف عن أسرار محيطه و وجوده ،و لصياغة نتائج تصوره المبني على تلك المقدمات الفلسفية في شكل قيم و قواعد خلقية قابلة للتطور مهمتها قيادة حياته و تنظيمها وفقا لمنطقها التطوري ذاته .و في الواقع ليس هناك من يقين في تلك التأملات الفلسفية، بمعنى اليقين الديني القائم على المعرفة التي يأتي بها الوحي كما نفهمها و نعيشها في إطار الإسلام.و لذلك فان القيم و الرؤية الكلية للوجود التي توجه تلك الحضارة تخضع لعملية مستمرة من المراجعة و التغير و التبديل "9

3. معالم النموذج المعرفي الغربي الحديث:

هناك سياقات فكرية و اجتماعية أدت إلى نشأة النموذج المعرفي الغربي ،فقد تشكل من امتزاج عدة عوامل مثل التراث اليوناني و الروماني ،إضافة إلى الدور المحوري السلبي للكنيسة الذي ساهم في تشكيل الوعي الغربي الحديث ،فالكثير من القناعات هي عبارة عن ردة فعل إزاء ممارسات الكنيسة في القرون الوسطى ، و قد حدثت النقلة في الوعي الغربي مع بداية إرساء نموذج معرفي جديد استند إلى شرعية العقل من خلال فلسفة ديكارت التي أخذت سلطة التفكير من يد الكنيسة و وضعتها عند العقل الإنساني ،فالعقل اعدل قسمة بين الناس و مثلما يستطيع القس أن يفكر و بإمكان الآخرين أن يفكروا و يصلوا بعقولهم إلى الحقائق دون توجيه من الكنيسة ،"لقد أقام النظام المعرفي الغربي بنيانه على ثنائية الطبيعة و الإنسان ،و على العقل و الحواس كمصادر و حيدة للمعرفة ،و كان الإنسان هو محور الوجود و المعرفة و الحضارة ،ثم أن العلمانية أو فصل الله عن الوجود ،و الدين عن الحياة هي الطابع العام المميز للنظام المعرفي ،و تم تجريد الطبيعة و الإنسان من كل إحالة دينية أو روحية أو ميتافيزيقية أو قيمية "10

لقد استند النموذج المعرفي الغربي إلى أن العالم الطبيعي هو العالم الحقيقي ،الإنسان أهم الكائنات في الطبيعة ،العقل أداة للسيطرة على الطبيعة ،اعتبار العقل و الطبيعة على علاقة مباشرة ،إن "علمنة المعرفة تعتبر إعلانا عن سيادة العقل كمصدر أساسي للمعرفة في مقابل المصادر الأخرى ،لا سيما مقابل الوحي ضمن سياق تحديد الحقيقة...إن السمة الانفصالية التي

تسم التحدي القائم بين العقل و الوحي هي سمة مميزة للموروث الفكري الغربي ،و هي مغامرة بدأت من فكرة عبثية أو لاعقلانية الوحي ،و انتهت بمحاولات عقلنة المعتقدات"11

كما أن الاهتمام بالعالم المادي و إعمال الحواس و التجارب فيﷺ شكل دعامة هامة في النموذج المعرفي الجديد ،و قد أرسى غاليلو و نيوتن الفيزياء على التجريب . و أصبحت الطبيعة موضوعا للاكتشافات من خلال البحث عن قوانينها. لقد ﷺدث تحول مهم ﷺيث وجﷺ الإنسان من الاهتمام بالسماء إلى الاهتمام بالأرض. لقد اعتبرت فلسفة فرانسيس بيكون التجريبية محاولة لإعادة النظر في مفهوم الحقيقة بمعناها القديم، فالحقيقة بالنسبة لبيكون لم تعد توجد خارج هذا العالم، ولم يعد يتوصل إليها بالحدس، والإلهام، أو بنوع من التجريد العقلي، بل هي كامنة في الطبيعة بيننا و ما على الإنسان إلى البحث عنها بالتجريب و استغلالها لخدمتﷺ ،يقول بيكون :"لا يمكن السيطرة على الطبيعة إلا بالخضوع لها ،لا بالثورة ضدها .يجب أن نتعلم كيف نفهم الطبيعة ،كيف نبحث عن نماذج الأشياء و صورها التي توجد فيها ،عن خصائص هذه الأشياء ،و الميادين التي يجب أن تستعمل فيها .إن ذلك ما سيمكننا من توقع نتائج أعمالنا، و بالتالي التحكم في الضرورة التي تريد الطبيعة فرضها علينا...و القدرة التي تمكننا من فهم ذلك تنبع من العلم و المعرفة...إن ما يبدو سببا على صعيد التأمل النظري يصبح قاعدة في الميدان العملي"12

و بعد منتصف القرن التاسع عشر انتشر الفكر الوضعي الذي يكرس أن الأسئلة و الافتراضات التي تكون موضوعات للبحث يجب أن يتم اختبارها تجريبيا في ظروف من الضبط التجريبي الصارم ،كم أنﷺ يقصي كل ما لﷺ علاقة بالميتافيزيقا ، و الذي يدعو الى التعامل مع الظواهر الانسانية بنفس مناهج الظواهر الجامدة و فرض الفهم المادي للظواهر و استبعد كل ما عدا ذلك ، ﷺيث اظهر تحديﷺ للمسائل الفلسفية باعتبارها كلها مسائل لغوية تفتيتية ،و عمت الوضعية المنطقية التي تهتم بالتحليل و التفتيت على ﷺساب المعاني الكلية .

توجد رؤية غربية تدعي أن العلم هو صناعة غربية ﷺصرا ،هذه الرؤية الإيديولوجية تدعى أن التحولات التي مر بها المجتمع الغربي و الخيارات التي اتخذها لصناعة نهضتﷺ العلمية أهلتﷺ ليكون بيئة ﷺاضنة للإبداع العلمي و المعرفي ،و هو يؤكد على تفوقﷺ بما يتمتع بﷺ من أطر سياسية و اجتماعية و قانونية تتيح الفرصة لروح المبادرة و الإبداع العلمي و المعرفي ،هذه الرؤية التي تضع الحضارة الغربية في موضع متفرد تلغي سنة التداول بين الحضارات ،و كأنها تجعل من النموذج المعرفي الغربي هو طريق النجاح الأمثل للذين فشلوا في تحقيق نهضة علمية . فمثلا نجد أوغست كونت أن يقدم أطوارا لتطور التفكير البشري ، و رأى أنﷺ مر بثلاثة مرا ﷺل: المرﷺلة اللاهوتية،المرﷺلة

الميتافيزيقية، المر□لة الوضعية،في المر□لة الأولى كان عقل الإنسان يفكر في الظواهر بالاستناد إلى تفسيرات لاهوتية، و بعدها صار يفكر من وجهة نظر ميتافيزيقية مثل تفسير الفلاسفة الطبيعيين، و لم نضج العقل البشري أصبح ينظر للظواهر من وجهة نظر مادية وضعية.لقد صور كونت تطور المعرفة وفق النموذج الغربي و كأنها بمثابة مر□لة الكمال في تطور التفكير البشري، و كأن النموذج المعرفي الغربي هو زبدة التطور الفكري الإنساني، كذلك نجد باشلار يؤكد وجود هذه الخلفية الغربية بقول□ أن العقل البشري مر بثلاث مرا □ل في تطوره : مر□لة المعرفة العامية أو ما قبل العلمية و كانت في الأزمنة القديمة و القرون الوسطى □تى القرن السابع عشر ،المر□لة الثانية: مر□لة المعرفة العلمية التي بدأت في أواخر القرن الثامن عشر وشملت القرن التاسع عشر، أما المر□لة الثالثة فهي مر□لة الفكر العلمي الجديد ابتداء من ظهور نظرية النسبية في بداية القرن العشرين.

4. انتقاد النموذج المعرفي الغربي:

لقد ركز رواد أسلمة المعرفة جهودهم لانتقاد النموذج المعرفي الغربي و توضيح المآلات السلبية التي آل إليها و رأوا بضرورة تحرير المعرفة من الرؤية الغربية الغير متوازنة ،و جدير بالذكر هنا أن الانتقادات التي طالت النموذج المعرفي الغربي لم تكن من خارج البيئة الغربية ،بل من داخلها أيضا فهناك من دعى إلى مراجعات لتدارك الاختلالات التي طالت النموذج المعرفي الغربي ،و هناك من أعاب علي□ ابتعاده عن الجانب القيمي و الديني ،فعلى سبيل المثال نجد المستشرقة الألمانية سغريد هونك□ التي انتقدت المرتكزات التي قامت عليها النهضة العلمية الأوربية ،و رأت أنها جردت المعارف من أي محتوى قيمي ، □يث تقول "تلك هي عواقب عصر التنوير و التوعية التي جلبها هذا اللون من أسلوب الفكر الازدواجي الذي تولدت جذوره من مصادر مسيحية و إغريقية و كارتريزية انتزعت سمات الألوهية بكل أبعادها عن العالم المادي الذي سادت في□ مظاهر الكفر و الإلحاد ،بل و اقتلاع القيم الدينية من جذورها ،الأمر الذي انتهى باقتلاع كل القيم التي تساعد على إدراك الكون الإلهي الذي لم يتبق من□ سوى تأملات ضحلة و سطحية مشوبة بالاستعجال و الخوف و الخواء و التمسك بعقلانية مادية انتهت إلى سيادة الفلسفة العدمية... لقد ولد التعميم المطلق للمادة القناعة للمعرفة المطلقة بهذا الكون □تى آخر □دودها ،الأمر الذي أوصلها إلى إغفال و إبعاد الإلوهية و إسقاطها من عرشها في هذا الكون ،و يدعي العلم نفس□ كأ□د البديهيات الجديدة اضطلاع□ بتحرير هذا الكون و مجتمعات□ من كل الظلال و المعوقات التي نسجت □ول□ ،و كذلك كل بقية تساؤلات الإنسان"13

كذلك رأي رجاء غارودي أن عصر النهضة □مل مع□ قيم اتبعتها الحضارة الغربية في نموها وتقدمها منذ القرن السادس و قد أوصلتها هذه القيم إلى أزمة داخلية عميقة، تجسدت في اختلالات

، حيث رجح الجانب المادي و نتيجة لهذا فقد الإنسان جوهره المعنوي والأخلاقي، و رجح كذلك جانب العقل بحيث اعتبروه قادر اً على حل جميع المشكلات، بحيث لا توجد مشكلات حقيقية إلا تلك التي يستطيع العلم حلها، و في هذا استبعاد لكل جانب روحي أو ديني في حل مشكلات الإنسان ،و قد رأى غارودي أن حضارة تقوم على هذه الاختلالات هي حضارة مؤهلة للانتحار.

رأي عبد الوهاب المسيري "ان النظام المعرفي الغربي تقلب بين الفكر الاستناري الذي اكد حرية الانسان و فكر الاستنارة المظلمة الذي قام بتفكيك الانسان ،...ان الواقع المادي في حد ذاته لا يمكن ان يزود الانسان بقيمة ،انما يزوده بالحقائق فقط اما القيم فلا ،و هو ما اوقع الفكر الغربي في حالة من الصراع و الفصام بين الحقيقة و القيمة "14 ،لقد وصف المسيري الحضارة الغربية بـ" أنها حضارة داروينية ،فهي مادية أكثر منها عقلانية ،تقبل الصراع بوصفه قيمة نهائية ،و تجعل من البقاء المادي الهدف الوحيد من الوجود ،و قد تقبل عامة الناس النموذج الدارويني الصراعي دون إدراك منهم "15

انتقد الفاروقي النموذج المعرفي الغربي و رأى أن العيوب الموجود فيه يمكن أن يعوضها النموذج المعرفي الإسلامي ، حيث أن الخلفية الفكرية الغربية تقوم على الاعتقاد بان الغيب لا يمكن أن يكون مصدرا للمعرفة ، و أن العلم هو ما يتعلق فقط بالحقائق الموضوعية التي ترصدها الحواس،و تبعا لهذا فهو يخلوا من أي موجهات أخلاقية أو قيمية ، و غايته القصوى هي إشباع الحاجات المادية دون الالتفات للقيم الأخلاقية . رأى الفاروقي ان الغرب غالى في رعاية الذات الانسانية لدرجة تاليهها و جعل اشباع رغباتها هو معيار الخير و الشر ،كما انه غالى في استغلاله للطبيعة ،و بالرغم من ان هناك وجه ايجابي يتمثل في ازدها العلوم الطبيعية و ابتكار التقنيات لخدمة الانسان الا أن تأليه الرغبات ادى الى استغلال الطبيعة دون وازع اخلاقي أو معيار قيمي مما ادى الى اختلال توازن الطبيعة 16

رأى الفاروقي أن النموذج المعرفي الإسلامي بإمكانه أن يتجنب الانزلاقات التي وقع فيها العلم الغربي من إنكار لوجود الله ومن نهب للطبيعة و إعلان السيطرة عليها ، ذلك انه يتأسس من القيم و الأخلاق المستمدة من الوحي ، و نظرا لأخلاقيته فهو يرتبط بالجماعة و الأمة ، كما أن الاجتهادات و المعارف تنظم نفسها تحت مبدأ التوحيد. فالله هو مسبب الأسباب و المعرفة تعد معرفة لإرادته و حكمته و تدبيره.إن الرؤية الابستمولوجية البديلة التي يعرضها الفاروقي " تقر بوجود تلازم بين الدين و العلم و الفلسفة .رؤية تتجاوز نزاع العلم مع الدين ،لأن العلم وحده من دون الدين جعل الناس العاديين يرون أن العلم يتهددهم و يحط من مكانتهم فقد جعلهم غرباء عن الكون الذي يعيشون

فيه بينما العلم الصحيح هو الذي يزيل غربة الإنسان عن الطبيعة و يجعله انسيا لها متوافقا معها 17"

كذلك رأى الفاروقي أن النظام المعرفي الغربي الذي يقول بالمصادفة ينفي أي بعد غائي في هذا الكون ،فبعض العلوم الغربية تبرر بعض الفيزيائية المادية بالصدفة و قد ادخلوا مفهوم الفوضى لميدان العلم ،و هم بهذا يكرسون رؤية الوجود الخالي من أي غاية ،و هم يناقضون ما أتي به الوحي بأن هذا الوجود لم يخلق عبثا و أن كل شيء مخلوق بمقدار ،فالله يجري مشيئته في هذا الكون وفق أسباب و علل ،كما أن النظام المعجز في الكون و كيف توفرت شروط الحياة الأرض يبين بلا شك غائية هذا الوجود و التصميم الدقيق الذي يكتنفه .

انتقد الفاروقي الادعاء الغربي بأن علومه الاجتماعية تتسم بالموضوعية ،و أن القوانين التي توصلوا إليها تعبر عن ثوابت في الظاهرة الإنسانية و يمكن أن تكون صالحة في أماكن أخرى ،و رأى أنه يستحيل على الباحث أن يتجرد من الجهاز القيمي الذي يقرر الاستنتاجات دون أن يشعر به ،يقول الفاروقي :"يدعي الغرب أن علومه الاجتماعية تتسم بالصفة العلمية لأنها محايدة ،و تتعمد تفادي الأحكام و التفصيلات الإنسانية ،و تعامل الحقائق باعتبارها حقائق و تتركها تتحدث عن نفسها ،و لكن ذلك كما رأينا يعد ادعاء غير ذي جدوى ،فأنه ليس ثمة إدراك نظري لأية حقيقة بدون إدراك طبيعتها و علاقتها القيمية " ، و لذا فنتائج بحوثهم يشوبها التحيز و قلة الموضوعية ،فلما يتحدث الباحث عن المجتمع الإنساني فهو يتحدث في الحقيقة عن المجتمع الغربي ،و حينما يتكلم عن الدين فهو يفكر في المسيحية.18

وصف نقيب العطاس المعرفة الغربية بـ"أنها قد جلبت الفوضى و الاضطراب في حياة الإنسان بدل أن تكون سبب سلام و أمن و عدل .إنها معرفة تدعي تصوير الحقيقة و التعبير عنها، و لكنها في الحقيقة لا تنتج إلا الاضطراب و التشويش و الشك(scepticism)،فهي ترفع الشك و الضن إلى مصاف "العلمية" منهجيا،معتبرة الشك أداة معرفية صحيحة و مهمة في البحث عن الحقيقة .19"

كذلك رأى العطاس أن النفور من الدين الذي ترسخ في النموذج المعرفي الغربي أنتج فكرا ماديا ادخل الإنسان الأوروبي في رحلة بحث مستمر مرفوقة بشك مستمر ،يقول العطاس: "إن روح البحث العلمي في ثقافة الغرب و حضارته قد نشأت مترادفة مع خيبة أمل في الدين كما فهم في ظل تلك الحضارة .أما الدين بالمعنى الذي نقصده هنا فلم يكن له في الواقع أية جذور في الحضارة الغربية ،وذلك بسبب تيها المفرط و المنحرف للدنيا و لحياة الإنسان الدنيوية ،و بسبب انشغالها بمصير الإنسان الدنيوي فحسب،فروح البحث فيها إنما ولدت في ظل حالة من الشك و التوتر الداخلي ،ذلك

التوتر الناجم عن الصدام بين العناصر المتضادة المتنافرة و القيم المتعارضة في ثنائيتها المتوطدة المستديمة ،بينما الشكوك و الريبة تعمل على الحفاظ على ذلك التوتر الداخلي .و قد سبب هذا التوتر هو الآخر رغبة جامحة لا تشبع في ر□لة بحث لا تنتهي جريا وراء الاكتشافات"20

لقد استبعد النموذج المعرفي الغربي أي شيء خارج العالم المادي "فالإنسان يتم تأليه□ (deified) و الإل□ تتم أنسنت□ (humanized) و يصير العالم هو الشاغل الو□يد للإنسان □تى أن خلوده هو ذات□ يصبح كامنا في استمرار نوع□ و ثقافت□ في هذا العالم .فما يسمى تغيرا و تطورا و تقدما في النوع الإنساني وثقافت□ هو بالنسبة للحضارة الغربية نتيجة لذلك البحث الذي لا يشبع و الر□لة التي لا تنتهي اللذين يستحثهما هذا الشك و التوتر الداخلي،فالإطار الذي تفهم في□ مفاهيم التغيير و التقدم هو دائما إطار دنيوي يقدم باطراد رؤية مادية للوجود "21

تكلم جابر ط□ العلواني عن النظام المعرفي الغربي ،و كيف يستبعد كل ما ل□ صلة بالغيب و الذي يكرس الرؤية الوضعية المادية ، □يث يصف□ بأن□ "نظام وضعي يتجاهل الغيب تماما،قد ينكرون□ و قد يتجاهلون□ فقط،و هذا هو النظام المعرفي العلماني أو الوضعي ،و هو جانبان جانب ملحد ينفي الغيب ،و جانب لا ينفي□ و لكن يقول لا يهمني أن يكون هناك غيب،فأنا أتعامل مع واقع و أشياء موجودة فقط"22 ،لقد أشار العلواني إلى استبداد التأويل الوضعي المادي بأسس العلوم الطبيعية ،و قد أدي هذا إلى نشوء رؤية كلية تقصي الوحي على أن يكون مصدر للمعرفة "الفشل الذي لحق بالكنيسة و أطرو□ات الكنيسة التي أدت ببعض المفكرين و الفلاسفة لكي يبحثوا عن رؤى و فلسفات لهذه العلوم الجديدة يريدون أن يضعوا التجربة و العقلانية...في إطار رؤية متكاملة ،فنشأت و ازدهرت فلسفات مادية ،لأن هذه الفلسفات لا بد منها في النهاية لنسيج متكامل للمعرفة .و أصبح الكلام عن أي شيء يعطي مصدرا للمعرفة سوى هذا الكلام لا ينظر إلي□ قط"23

يتضح مما سبق أن رواد أسلمة المعرفة لا يرفضون العلوم الغربية بقدر ما يحذرون من خطورة المنبت التي نشأت في□ ، فالأسس التي قام عليها النموذج المعرفي الغربي يعاني من عدة اختلالات خاصة في علاقة العلم بالدين و علاقة الإنسان بخالق□ و علاقة الإنسان بالطبيعة ، و قد انعكس هذا سلبا فيما يخص الجانب القيمي في العلوم و المعارف الغربية ، كما أن النموذج المعرفي الغربي الذي يدعي بعض المنظرين أن□ قمة تطور النماذج المعرفية مبني على رؤية أ□ادية تبالغ في التركيز على الجانب المادي و تهمل الجانب القيمي ،و تجرد الوجود من أي غائية مما جعل تلبية رغبات الإنسان هي الغاية ،و هذا ما أدخل الإنسان في صراع مع الطبيعة ،كما أن مذهب العداء المصطنع بين العلم و الدين اعتنق□ الغرب نتيجة ممارسات لاهوتي القرون الوسطى لا مبرر ل□ ،كما

أن النفور من الدين ادخل الإنسان الغربي في دوامة من الشك و خاض رحلة من البحث مليئة بالتوتر ، و أصبحت القيم نسبية و متغيرة و تغيرت معها أهداف العلم و المعرفة ،بحيث أصبح العلم يحل مشاكل و ينشىء مشاكل اعقد منها ،كل هذا دفع أصحاب مشروع أسلمة المعرفة إلى القول بضرورة تحرير المعرفة من الرؤية الغربية و إعادة تأسيسها بشكل متوازن .

هوامش المقال:

[1] - سيد محمد نقيب العطاس ،مداخلات فلسفية في الإسلام و العلمانية ،ترجمة :محمد طاهر الميساوي ،ط01، دار الفجر - ماليزيا ،دار النفائس- الأردن، 2000،ص155

[2] -إسماعيل الفاروقي،أسلمة المعرفة :المبادئ العامة و خطة العمل،ترجمة :عبد الوارث سعيد ،دار البحوث العلمية،الكويت،1983،ص16

[3]- توماس كون، بنية الثورات العلمية، ترجمة: شوقي جلال، عالم المعرفة ،الكويت ،1992، ص99.

[4] -مجموعة من المؤلفين ،إسماعيل الفاروقي و إسهاماته في الإصلاح الفكري الإسلامي المعاصر ،دار الفتح للدراسات و النشر ،فرع المعهد العالمي للفكر الإسلامي ،الأردن ،2014،ص192

[5] -المرجع نفسه ،ص193

[6] - محمود سعيدان ،تاريخ أوربا في العصور الوسطى،دار النهضة العربية،ط1،بيروت لبنان،2006،ص64

[7] - زيغريد هونكه،العقيدة و العلم :وحدة الدين الأوروبي و علم الطبيعة ،ترجمة:محمد أبو طب خالد ،ط01،المجلس الأعلى للثقافة ،مصر،2007،ص151-152

[8] حسين نصر ،العلوم في الإسلام ،ترجمة :مختار الجوهري ،(دار الجنوب للنشر ،تونس ،1978) ،128

[9] - سيد محمد نقيب العطاس ،مداخلات فلسفية في الإسلام و العلمانية ،ص156-157

[10] -عبد العزيز بوالشعير،النظام المعرفي في الفكرين الإسلامي و الغربي ،ط1،منتدى المعارف،بيروت،2014،ص373-374

[11] - مجموعة من المؤلفين ،نحو نظام معرفي إسلامي ، تحرير:فتحي حسن ملكاوي ، حلقة دراسية بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي،فرع الأردن ، ،الأردن،2000،ص115-116

[12] - محمد عابد الجابري مدخل إلى فلسفة العلوم ط4، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ،1998،ص238

[13] -زيغريد هونكه،العقيدة و العلم :وحدة الدين الأوروبي و علم الطبيعة ،ص310

[14] -عبد العزيز بوالشعير،النظام المعرفي في الفكرين الإسلامي و الغربي ،ص346

[15] - مجموعة من المؤلفين ،نحو نظام معرفي إسلامي ، ص60

[16] -مجموعة من المؤلفين ،إسماعيل الفاروقي و إسهاماته في الإصلاح الفكري الإسلامي المعاصر ، ص202

[17] -عبد العزيز بوالشعير،النظام المعرفي في الفكرين الإسلامي و الغربي ،ص393

[18] - إسماعيل الفاروقي ،صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية ،الدار العالمية للكتاب الإسلامي ،المعهد العلمي للفكر الإسلامي ،واشنطن ،1981،ص28

[19] - سيد محمد نقيب العطاس ،مداخلات فلسفية في الإسلام و العلمانية ،ص155

[20] - المرجع نفسه ،ص157

[21] - المرجع نفسه ،ص 158

[22] - طه جابر العلواني ،مقدمة في إسلامية المعرفة ،ط1،دار الهادي للطباعة و النشر ،بيروت،2001،ص49

[23] -المرجع نفسه،ص13